آليات التأثير والإقناع في آيات "قل" في القرآن الكريم دراسة لغوية

*عمر عبد الهادي حسن الزيادات، نزار مسند القبيلات**

ملخص

هدفت الدراسة إلى التعرف على آليات التأثير والإقناع الواردة في (آيات "قل") في القرآن الكريم، وانتهجت الدراسة المنهج التحليليّ اللّغويّ؛ للكشف عن هذه الآليات، والتعرف على دورها في سرعة ظهور استجابة المتلقي وقبوله هذا الخطاب، وأبرزت الدراسة أنّ القرآن الكريم ثريّ بهذه الأفانين اللّغويّة، كماً ونوعاً، وذلك تناسبا مع طبيعة المتلقي والظروف المحيطة بالعملية الحجاجيّة والهدف منها. فالمتلقي أنواع أربعة فيما يرى الباحث: المؤمنون، الكافرون، أهل الكتاب، المنافقون. وهذا التقسيم يستدعي تنوعاً في الأساليب اللّغويّة التي جاءت واضحة في النص القرآنيّ.

الكلمات الدالة: آليات، التأثير، الإقناع، آيات "قل".

المقدمة

دأب العلماء منذ زمن بعيد على معاودة النظر في القرآن الكريم؛ لاستخلاص ما في هذا البحر الخضم من درر ونفائس، ولا شك في أنّ المتتبّع للدراسات اللغوية في القرآن الكريم يجد أنّها قد أبانت عن كثير من وجوه الإعجاز البيانيّ واللغويّ في نظمه؛ في محاولة منها لتعليل كثير من المسائل التي جاء عليها هذا النظم البديع، لكنّ أياً من هذه الدراسات – وهنا تكمن مشكلة البحث– لم تأت على النص الذي تحدث عن حوارية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، كما نقلها القرآن الكريم، مع من حاولوا الطعن في هذا الكتاب والطعن في الدعوة بعامتها؛ لتكشف عما فيه من آليات لغوية إقناعية؛ فجاءت هذه الدراسة هادفة إلى الكشف عما حوت هذه الحوارية من علامات وأفانين لغوية (صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية) رامية إلى التأثير في المتلقي بتعدد أنواعه: (المؤمن، والكافر، وأهل الكتاب، والمنافق)، وبيان دورها في إقناعه بفحوى هذا الخطاب، لتثبت أن الدعوة المحمدية قائمة على الحجة والإقناع، والجدال بالتي هي أحسن، ومستنبطة للأساليب اللغويّة والحجاجيّة المنطقية في محاججة الأقوام التي وقفت في وجه الدعوة، وملاحظة كيف أسهمت هذه الأساليب في سرعة ظهور استجابة المتلقي على تعدد أنواعه، وعليه فإن هذه الدراسة تتطلب منهجا علميا دقيقا يعتد بالسياق الذي تستعمل فيه اللغة، وأثره على بنية الخطاب ومعناه، وهذا ما يوفره المنهج التحليليّ النصيّ اللغويّ الذي اعتمده الباحث.

ولم نقصد من هذه الدراسة الوقوف عند جماليات النظم القرآني بقدر ما قصدنا إلى الوقوف عند ما يجعل هذا النص سريع التأثير والإقناع لمتلقيه، وكيف أنّ القرآن الكريم قد حقّق مراده في برهة من الزمن لا تساوي شيئاً في تعداد السنين؟، فوجّه آلياته إلى مركزين هامين في الإنسان المخاطَب: القلب منشأ العاطفة، وآخر العقل منشأ التفكير، فحقق في وجهته الأولى التأثير، وحقق في الثانية الإقناع.

وثمة دراسات كثيرة في موضوع فعل القول والحجاج، مثل دراسة أحمد منصور (قل في القرآن الكريم)، ودراسة عمر عكاشة (من قضايا فعل القول في العربية)، ودراسة زاهر الألمعي (مناهج الجدل في القرآن الكريم)، ودراسة ابن عيسى باطاهر (أساليب الإقناع في المنظور الإسلامي)، ودراسة أحمد مزواغي (أساليب الإقناع في سورة يوسف، دراسة لسانية تداولية)، ودراسة هشام بلخير (آليّات الإقناع في الخطاب القرآني، سورة الشعراء نموذجا، دراسة حجاجيّة)، ودراسة فايزة بو صلاح (الإقناع في قصة إبراهيم عليه السلام، مقاربة تداوليّة)، ودراسة محمد عرابي (البنية الحجاجيّة في قصة سيدنا موسى عليه السلام)، ودراسة حياة دحمان (تجليات الحجاج في القرآن الكريم، سورة يوسف أنموذجا)، ودراسة ولد البيبة يوسف (دلالة الحركات الجسديّة في الخطاب القرآنيّ).

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2018/4/16، وتاريخ قبوله 2018/7/5.

© 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

بعد المقارنة بين هذه الدراسات وغيرها مما كتب في الحجاج القرآنيّ من جانب، ودراستنا الموسومة بـ آليّات التأثير والإقناع في آيات "قل" في القرآن الكريم– دراسة لغويّة، من جانب آخر، وما ترمي إليه هذه الدراسة من البحث في آليّات التأثير والإقناع في جانب معين من النص القرآنيّ، وهو الآيات التي تتضمن لفظة "قل"، وأثر هذا الكلام الربانيّ الذي نقله رسول الله – ^– إلى المتلقين. ومن خلال تتبع الأساليب اللغويّة بجميع مستوياتها (الصوتيّ، والصرفيّ، والنحويّ، والدلاليّ)، وبعد هذه المقارنة يتضح لنا أن هذه الدراسة تتميز عن سابقاتها بأمور منها: أنها لم تقتصر على دراسة سورة واحدة بعينها، فدراستنا لم تنهج هذا المنهج بل تتبعتُ حواريّة النبي محمد – عليه الصلاة والسلام–، لقومه في القرآن الكريم كاملا، وعالجتُ آليّات التأثير والإقناع في موقعها تبعا لاختلاف المتلقي، ومحاولا بيان أثر هذا الاختلاف في سرعة الاستجابة عند المتلقي. ومن المؤمل أن تكون النتائج التي ستخرج بها هذه الدراسة مختلفة عن غيرها من الدراسات تبعا لاختلاف عينة الدراسة.

كما إن الدراسات السابقة وغيرها مما كتب في الحجاج القرآنيّ جاءت باحثة عن الإقناع في القرآن الكريم بوسائل متنوعة، مثل: الأساليب العقليّة المنطقيّة كالاستدلال والمحاجّة، والأساليب النفسية كالحب والكره، والأساليب البلاغيّة، والأساليب القصصيّة، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، كأساليب إقناعيّة، وهناك الأساليب الجسديّة، ولكنني لم أجد من بين الدراسات السابقة من بحثت في الأساليب اللغويّة بمستوياتها الأربعة: (الصوتيّ، والصرفيّ، والنحويّ، والدلاليّ)، أو اقتصرت عليها في البحث بشكل مكثف كأساليب إقناعيّة، وبيان دورها التأثيريّ والإقناعيّ في عملية الحجاج كما فعلنا نحن؛ وعليه فمن المؤمل أن تكون هذه الدراسة فريدة بتتبعها واقتصارها على الأساليب اللغويّة المتبعة فيها كأساليب إقناعيّة، كما هي فريدة بعينتها (آيات قل) على امتداد صفحات القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم نزل بلغة القوم، التي هي وعاء فكرهم وثقافتهم، فتحداهم بما هم أهله، فسهّل عليه إقناعهم، أو إلزامهم الحجة إن أبَوا إلا الحياد عن الطريق، ثم هو كتاب هداية وتوجيه وإرشاد يرمي إلى إحداث تغيير في الأمة. ونهض إلى هذا الهدف عن طريق اعتماده الحجاج أسلوبا في كثير من آياته، وقولُ الوليد بن المغيرة – وقد مات ولم يسلم– في القرآن الكريم: والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو بكلام بشر، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه... (النيسابوري، 1998)، يُظهِرُ تأثير القرآن الكريم على سامعيه، وإحداث التغيير الداخلي في ما انطوت عليه صدورهم.

والآليات أو الأفانين اللّغويّة التي تهيئ في بنائها لنص حجاجيّ محكم قد تتوفر في القصيدة أو القصة أو الخاطرة وغيرها من الفنون الأدبية النثرية والشعريّة، لكنها تختلف عما هي عليه في القرآن الكريم، حيث الوفرة والقصديّة أو التنوع في الأساليب من موقع لآخر "ولكن خصوصية القرآن في استخدام هذه الظواهر إنما تكمن في جعله إياها أسلوبا قارّا فيه مميزا له بمعنى أنها ظواهر مطردة فيه مكررة غير عرضية" (صولة،2001)

وللحجاج أركان يقوم عليها، وتعمل مجتمعة على إثراء ذلك الموقف الحجاجيّ القائم على الحجة والبيان، و"الحجاج في القرآن هو كما رأينا حوار دائر بينه وبين متلقيه أو هو بالأحرى حوارية معتبر فيها حضور الطرف المتلقي حضورا فاعلا وليس هو عنفا مسلطا على العقول في شكل استدلالات جامدة ولا هو باللامعقول الذي يخلب الألباب في شكل خزعبلات صائدة" (صولة،2001).

وبلاغة الحجاج تقصد إلى استدراج الخصم للإذعان والتسليم. وقد عرّف الحجاج بأنه: "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" (صمود، 1998)، وعليه يمكن اعتبار الحجاج "علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجّة لكن هذا العمل محكوم بقيود لغويّة" (قبيلات، 2015).

والحجاج يتسع من عصر لآخر، ومن شكل فني لآخر، ويأخذ مدلولا يتساوق مع ذلك الميدان، "إن الحجاج يتحدد في منظور أنسكومبر وديكرو بصورة مغايرة لما تفيده هذه العبارة في تداولها ضمن حقل الخطابة، فهذا المفهوم يتميز بكونه أوسع وأرحب مقارنة بما نجده في كتب الخطابة والحجاج الكلاسيكية، ففي هذه الكتب يتم حصر هذه الفاعلية في ذاك النشاط الذي يروم إقناع مخاطب ما ودفعه نحو العمل؛ لأن كل حجاج كما يقول برلمان مثلا إنما يتوخى استمالة النفوس. إن مدلول الحجاجيّة في الاصطلاح الخاص بالتوجه الذي نعرض له في هذا السياق يتعلق بوقائع مخصوصة تتصل بالخطاب، أي بنمط محدد من العلاقات التي تنسجها الملفوظات أو الجمل في ما بينها بفعل آليات التأليف الخِطابي المتنوعة، إن الدراسة التي تباشرها الحجاجيّات اللسانية غايتها وصف هذه التأليفات الخطابيّة" (الراضي,2014)، ولعل سؤالا يقدح في ذهني هنا، وهو ما الغاية من

وصف هذه التأليفات اللّغويّة الخطابيّة إن لم يكن التعرف على دورها التأثيريّ والإقناعيّ!؟ فلا أرى فرقا بين ما ذهب إليه أنسكومبر وديكرو ورشيد الراضي من جانب وما هو مؤصل في كتب الخطابة والحجاج الكلاسيكيّة من جانب آخر، فهما مكملان لبعضهما بعضا.

إن الشكل الذي يتموضع فيه الحجاج قد يُلجئ المحاجج إلى أن يسلك طرقا مختلفة في حجاجه من حيث الإظهار والإضمار، فـ "الحجاج لا يرد غالباً في صورة صريحة وإنّما يتخذ صورة مضمرة وقد يطال هذا الإضمار الحجة أو النتيجة مع دوام إمكان اشتقاقهما اعتماداً على قرائن سياقية ومقاميّة" (الراضي، 2014).

ولعل الحجاج يقوم على المغايرة في الأسلوب والمباغتة في التشكيل، فلو انتكس الباثّ إلى ما يعرف المتلقي من أصول؛ لجاء نصه جامدا لا ينطوي على ما يروع المتلقي، ولسهل على المتلقي إدراك المخارج، ولكن القرآن الكريم عمد إلى العدول، فوقف القوم في ذهول، "فالكلام القرآني إذ ينهض جوهريا على العدول كما نراه لا كما هو معروف، يؤدي وظائف حجاجيّة مختلفة بواسطة ذلك العدول، ولا يعمد إلى العدول إلا ليكون كلاما حواريّا قائما على تعدد الأصوات وما كان ليتصف بهذه الحواريّة ذات الدور الحجاجيّ الكبير لولا قيامه على العدول" (صولة، 2001).

وثمّة فروق بين الحوار والمحاورة والمناظرة، فـ "المحاورة أعمّ من المناظرة، وكلٌّ من المحاورة والمناظرة حوار، وإذا وجد في الحوار محاجّة أو مجادلة أو خصومة أو نزاع كان مناظرة، كما هي الحال في جميع أنواع المناظرات، وفي أمثالها كالمنافرات والنقائض والمنازعات والمعاظمات، والحديث عن الشيء ونقيضه. وعلى العكس من ذلك إذا وجدنا حواراً انعدمت فيه المحاجّة أو المجادلة أو الخصومة كان محاورة كما هي الحال في معظم المحاورات القرآنية" (زيادة، 1986).

ويردّ هذا قوله تعالى في معرض قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، حيث وصف ما دار بين الكافر والمؤمن بالحوار، مع أنه ينطوي بداخله على خصومة ونزاع، فالمسألة بينهما كفر وإيمان، ومع ذلك سمي حوارا: (قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا، لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا) (الكهف 37-38)، والأمر كذلك في سورة المجادلة، فقد أطلق على شكوى المرأة زوجَها لرسول الله صلى الله عليه وسلم مجادلة، ثم قال: (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ) (المجادلة 1).

ولا يكفي الباث الاعتناء باللفظة الحجاجيّة من حيث هي مفردة، وما تؤديه من دلالات وتساوقها مع ما يحاذيها من كلمات، وإنّما يعمد إلى بعض الرموز والكلمات فيضعها بين لبنات النص الحجاجيّ، تكون هذه الكلمات بمثابة الروابط، أو ما يشدّ به البناء المحكم، وتزيد من تفاعل الكلمات فيما بينها حجاجيّا، وكأنّها ناقل شحنات بين أقطاب النص، فبها يزداد تفاعلا وتأثيرا. ويعد حضور هذا النوع من الكلمات حضوراً بارزاً في النص القرآنيّ، نحو قوله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ) (المائدة 68) وقوله تعالى: (قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) (سبأ 27) وقوله تعالى: (۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ) (الزمر 8). فكان لهذه الروابط والعلامات التأثير الكبير في إفحام المتلقي وجعله يسلم لهذا الحديث، وإن لم يؤمن به، فقال تعالى: (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ) (النمل 14).

واللفظة بمفردها لا تحمل معنى معينا، أو لا تحمل صفة حجاجيّة، فالمتكلم لا بد أن يهيئ لها قالباً حجاجيّاً يضعها فيه؛ لتؤدي ما هو مطلوب منها، "إن المتكلم حين يوجه ملفوظه توجيهاً حجاجيّاً فإنه يفعل ذلك عبر وسم هذا الملفوظ وسما حجاجيّا، ويكون هذا الوسم الحجاجيّ بتضمين الملفوظ مجموعة من العلامات والإشارات التي تحدد كيف ينبغي تأويله، وأي معنى يجب إسناده إليه؟، وتعتبر العوامل والروابط من ضمن أهم المواضع التي ينعكس فيها هذا التوجيه الحجاجيّ، بل إن سائر المظاهر الحجاجيّة الأخرى ترد في الغالب متفاعلة مع الروابط والعوامل" (الراضي، 2014)

والعوامل والروابط الحجاجيّة تسهم في توجيه الخطاب وجهة يرتضيها الباث، "فالروابط الحجاجيّة تربط بين قولين أو بين حجتين، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجيّة العامة، ويمكن التمثيل بالأدوات التالية، هي من مثل: بل، لكن، حتى، لا سيّما، إذن، لأن، بما أن، إذ. أما العوامل الحجاجيّة فهي تربط بين متغيرات حجاجيّة، (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجيّة التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما...إلا، وجل أدوات القصر" (العزاويّ، 2009).

المتلقي

ولأنّ العملية الحجاجيّة تقوم على الباثّ والنصّ والمتلقي الذي يعد الأهم بين زويا هذا المثلث، و"يمكن القول إن رأسه المتلقي كونه المطالب بإنجاز محمولاته" (قبيلات، 2015)، والمتلقي إما أن يكون خاصاً مقصوداً بذاته في الخطاب، وإمّا أن يكون عاماً، وإمّا أن يكون بين بين، كما هي الحال في القرآن الكريم عند مخاطبة فئة المؤمنين، أو الكافرين، أو أهل الكتاب، أو المنافقين.

والناظر في حواريّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه –كما بسطها لنا القرآن الكريم في أكثر من ثلاثمئة آية– يجد أن المتلقي لهذا الخطاب القرآني لم يكن واحدا (بنوعه)، بل تعددت أنواعه فكان المؤمن الموحد، وكان الكتابيّ (اليهوديّ والنصرانيّ) وكان المنافق، وكان الكافر، وهذه القصديّة في توجيه الخطاب مبنية على طارئ بين منتج الخطاب ومتلقيه (العسكري، 1952)، ولا شكّ في أنّ مشارب هؤلاء المتلقين مختلفة؛ فنتج عن هذا الاختلاف في قاعدة المتلقي الفكرية اختلاف في استراتيجيات الخطاب المتبعة معه؛ فكان ما يسمى بالخطاب التبجيلي، والتضامني، والإقناعي، والتقريعي، وغيرها من أنواع الاستراتيجيات الخطابيّة.

الجدول (1)

أنواع المتلقي والاستراتيجيات المتبعة معه من وجهة نظر الباحث

ت	المتلقي	استراتيجية الخطاب المتبعة
1	المؤمنون	التبجيليّ
2	المنافقون	التقريعيّ
3	الكافرون	الإقناعيّ
4	أهل الكتاب	التضامنيّ

وهذا التقسيم سمة عامة للخطاب القرآني موضع الدراسة، إلا أنّه ليس بالضرورة أن يندرج على كامل الخطاب القرآنيّ موضع البحث، وإنما قد تتغير الاستراتيجية مع المخاطب ذاته من موقع لآخر تبعاً للظروف المحيطة بالمحاجّة، وما تنطوي عليه من أهداف منشودة.

إن الحجاج أعمُّ من اللسان العربي، فالحجاج ظاهرة عالميّة، ليست مقتصرة على الجزيرة العربيّة فحسب، ومن هنا قد يرى بعض من الناس أنّ معجزة القرآن الكريم تكمن في حجاجيّته، لا في نظمه، "ولكن مخاطبة الناس كافة هذه التي تحدث عنها القرآن لا يمكن أن تكون بنظمه، فالنظم جمهوره ضيق جدا كما أشار إلى ذلك ابن القيم، وإنما يمكن أن يكون ذلك بواسطة ما اشتمل عليه من ضروب الحجاج، فالحجاج جمهوره مهما ضاق كوني دائما، وآية ذلك أن ما يربط بين الجمهورَين الخاص والكوني أمور هي عماد الخطاب الحجاجيّ، ومنها المعقولية التي تحكم أنواع الحجج، وطريقة بنائها وعرضها من الناحية اللّغويّة والأسلوبيّة على صعيدي الحقيقة والمجاز، ومنها القيم وهرميتها والمواضع وعمومياتها... ومنها أيضا اعتماد الموافقات وتقديم المخالفات.... هذه الأمور جميعها وغيرها توفرت في الخطاب القرآني؛ مما جعله خطاباً موجهاً إلى جمهورَين في الوقت نفسه الجمهور الضيق: (يا أيها الذين امنوا، يا أيها الكافرون، يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل)، والجمهور الواسع الكوني: (يا أيها الناس، يا أيها الإنسان)، وقد مثّل أسلوب العدول في القرآن بجميع أنواعه وعلى أصعدة الكلمة والتركيب والصورة الوسيلة التي حقق بها القرآن هذه المرامي الخطابيّة" (صولة، 2001).

وسنجلي الصورة للقارئ في هذه الدراسة عن دور اللّغة بمستوياتها: الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، في حجاج هؤلاء الأقوام، على تعدد مشاربهم ومنطلقاتهم الفكريّة، والنظر في ما جعلهم يذعنون لمقصود هذا الخطاب أو الكف عن محاربته والوقوف في طريقه.

والآليات اللّغويّة بهذا الصدد كثيرة في القرآن الكريم، بين مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وستكون كلها مستباحة لنا للوصول إلى ما ترمي إليه هذه الدراسة، ويصعب حصرها في هذا المقام، ولكننا سنقف عند كل منها في موقعها، وقفة مستفيضة، ونمثّل عليها هنا بـ: النفي، ويعد قانون النفي المتمثل بنفي ما استخدمه الطرف الآخر لدعم حجته من قوانين السلم الحجاجيّ (العزاويّ، 2009)، والاستفهام، والجملة الاسميّة، والجملة الفعليّة، والتكرار، والحذف،...إلخ. وتشكل هذه الآليات عاملا مهما في بناء الحجج وترتيبها في سلمها الحجاجيّ، لتساند بعضها في أداء وظيفتها الحجاجيّة، و"السلم الحجاجيّ هو علاقة ترتيبية للحجج

وكل قول يرد في درجة ما من درجات السلم يكون القول الذي يعلوه دليلا أقوى منه بالنسبة للنتيجة" (العزاويّ، 2009).

مضامين الخطاب القرآني في جملة "قل":

القارئ الحصيف والمتتبع لطبيعة الخطاب القرآنيّ المتضمَّن في جملة (قل) يجد أنه لم يقتصر على موضوع واحد، بل تعددت المواضيع كما هو تعدد المتلقي، أو هي استراتيجية الخطاب، فقد جاء الخطاب القرآنيّ على عناوين عديدة، بعضها يمس العقيدة مثل: نفي الشرك، أو أدلة التوحيد، وعناوين تمس قلب هذه الدعوة، وهو القرآن الكريم، وآلية الدفاع عنه، وعناوين تمس العبادات والمعاملات، مثل: الجهاد في الأشهر الحرم، أو الأهلة، أو النكاح. ولا عجب في هذا؛ إذ إن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم في كل مجالات الحياة، وصلاحيته لا تتوقف على زمان أو مكان. والحجاج ماثل في كل هذه المواضيع، "فالحوار لم يأت ولم يستدعه سياق أو غرض بعينه، إنه نمط من أنماط الخطاب القرآنيّ، يتضافر معها في تحقيق أغراضه الشاملة لأمور الدنيا والآخرة، وهو أسلوب من أساليب عرض الدعوة، له وقعه الخاص في نفس المتلقي، قد ينقله من دائرة التنظير إلى دائرة التنفيذ" (نزال،2003).

وقد شكلت الآيات التي تحدثت عن العبادات في الخطاب القرآنيّ الموجّه للمؤمنين القسم الأكبر من هذا الخطاب، مثل قوله تعالى: (﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)، (البقرة 219)، وقوله تعالى: (﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، (البقرة 189)، وهذا يتماشي مع طبيعة المتلقي، إذ هو قد تجاوز مسألة العقيدة والتصديق بالبعث والنشور، وما عاد يسأل أو يجادل إلا في أمور عبادته التي يرجو بها دخول الجنة. كما نلاحظ أن الخطاب في هاتين الآيتين الكريمتين وفي نظرائهما اتسم بالسهولة والمباشرة، ولا يحفل بالحجج اللّغويّة كما في خطابه مع المنافقين، أو أهل الكتاب، إذ إن الهدف من الحجاج – وهو إضعاف حجة الطرف الآخر وإرغامه على التصديق بمحتوى الخطاب – لم يتحقق هنا؛ لأن الطرفين يسيران باتجاه واحد، ولا تضارب في المصالح بينهما.

كما جاء الخطاب القرآنيّ الموجّه إلى أهل الكتاب منصبّا على مسألة نفي الشرك، والدعوة إلى إقامة التوراة والإنجيل، وترك المحاجّة في إبراهيم والدعوة إلى الحنيفية السمحة، كقوله تعالى: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)،(المائدة 76)، وقوله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ)، (المائدة 68) وجاء النص في هذا الخطاب مستندا على جملة لغويّة موفية بالغرض؛ ذلك أن الأمر مع أهل الكتاب مختلف، وأن الخطاب لهم لا بد أن يرتقي إلى حجم المشكلة أو الهوة بين القرآن الكريم ومتلقيه.

أما المنافقون فشأنهم عظيم وخطرهم جسيم؛ فجاء الخطاب بأعلى مراتب التوبيخ والتقريع لهم، وبيان قبحهم، فانطوى الخطاب معهم على عدة مضامين، كعدم السماح لهم بالخروج في الجهاد؛ لتقاعسهم أول مرة، فقال تعالى: (فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ)، (التوبة 83)، وعدم قبول عذرهم؛ لبيان كذبهم عند الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)، (التوبة 94)، ثم جاء الخطاب لبيان مسألة حساسة وهي مآلات الطرفين: المؤمنين الصادقين، والمنافقين؛ ليحذرهم من مغبة ما هم فيه، فقال تعالى: (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ)، (التوبة 52).

أما الخطاب مع الكافرين فمن شأنه الحديث عن مسألة الولاء والبراء، كما جاءت به سورة الكافرون: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ، لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ، وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ، وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ). (الكافرون 1–6).

وحتى تتضح الصورة حول تلك الآليات اللغوية التأثيرية والإقناعيّة نقف عند بعض الأمثلة متفحصين ما انطوت عليه من أساليب حجاجيّة لغوية أسهمت في سرعة إذعان المتلقي لهذا الخطاب، و"مظاهر الحجاج وطبيعته تختلف من سورة لأخرى، وهذا بالنظر إلى عدد الروابط، ونوع العلائق المنطقيّة التي تشتمل عليها السورة، ثم إن بعض السور لها طابع حجاجيّ قويّ، وهذا في تناسب وانسجام تام مع المضمون العام للسورة".(العزاوي، 2010).

أولا: خطاب المؤمنين:

قال الله تعالى في سورة المائدة:

(قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة 100).

يفخر الإنسان العربي بالكثرة، ويعتبرها ميزانا لمعرفة الغث والسمين؛ من أجل ذلك نبّه الشارع الحكيم في هذه الآية الكريمة على أن مسألتي الحق والكثرة ليست من المتلازمات، فالرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، ولعل الآية من وجوه الترغيب بالطاعة، والترهيب عن المعصية، كقوله تعالى في الآيتين السابقتين لها: (ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) (المائدة 98-99).

لقد "توجه النص القرآنيّ بعامة إلى عدد كبير من المخاطبين، وأبرزهم: الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–، والأنبياء، والمؤمنون، وأهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وإبليس، وأفراد بعينهم"(القضاة، 2009). ومن بين الآيات التي جاء الحديث فيها موجها إلى المؤمنين هذه الآية الكريمة في سورة المائدة، والآية على قصرها جاءت جامعة مانعة، ففيها بيان لزوم المفاضلة بين الأشياء، والتفكر فيها واتباع الطيب منها، وهذا القصر يشابه ذاك القصر في الآيات المستعملة في حجاج المنافقين، مع وجود الفرق في المتلقي، والأهداف المتوخاة من الآيات، ولكن وضوح فريق المؤمنين – كما هو حال المنافقين– وعدم مجادلتهم في سماع الحق وقبوله، استلزم قصر مبنى الآية، فالمتلقي هنا لا يحتاج إلى مزيد من الدلائل على صدق الدعوة، وإنما عليه التفكر في ما وهب من عقل في مآلات الأمور، وتبين رديئها من جيدها. ولكن سنلحظ تغيرا في طبيعة الخطاب مع الفئات الأخرى من الكافرين وأهل الكتاب، من حيث طول العبارة القرآنية، ووفرة الدلائل والحجج اللغوية فيها، فـ "الحجاج عرضة للتغير والتحوير في بنائه وأنساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعا لتغير المقام، وتغير ظروف المحاجج، حتى وإن ظل النقاش هو ذاته" (الأمين، 2000)، وتتبع طرائق الحجاج القرآني لهذه الأقوام ينطلق بداية من اللغة؛ فهي الوعاء الحقيقي للاستدلال على ما في ذات الحق سبحانه وتعالى من مقاصد سامية، وما تنطوي عليه كذلك النفس البشرية الأمارة من نوايا وأهداف، "فالحجاج خاصية لغوية دلالية" (المبخوت، 1998)، واللغة كذلك كما يرى العشراوي "ليست مجرد أداة للتواصل أو رموزا للتعبير عن الفكر، وإنما هي أداة لتغيير العالم، وصنع أحداثه والتأثير فيه"(العشراوي، 2016).

وفي قوله تعالى: (لَّا يَسْتَوِي) إشارة إلى أن الكافرين أو أهل الباطل قد ينجحون في التمويه على أهل الإسلام، بتساو أو تقارب الخير والشر؛ فيغتر بعض المسلمين بكثرة الباطل وصولته، فالآية جاءت في نفي الاستواء التام، وبيان أن هذا لا يحدث البتة، وإن خيل لك التقارب بينهما، فقد يقترب من وجهة نظر ضعاف الإيمان –خاصة– الخبيث من الطيب، وقد يقع هذا حقا، ولكن في الحقيقة البون بينهما واسع يوم القيامة، والآية "حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وبين جيدها قصد به الترغيب في جيد كل منها والتحذير عن رديئها" (أبو السعود، 1970).

وعدم الاستواء بينهما راجع إلى أن لذة الطيّب دائمة سرمدية، وهي الجنة، والنظر إلى وجه الرحمن، ولذة الخبيث عاجلة قصيرة، فلا يستوي القصير الفاني والأمديّ الباقي؛ ولأن الطيب حق والخبيث باطل.

وفي تقديم الخبيث على الطيب بيان قصور الخبيث عن إدراك الطيب؛ وبالتالي إثبات الأفضلية للطيب في وقت مبكر من الآية، "وتقديم الخبيث في الذكر للإشعار من أول الأمر بأن القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء فيه لا في مقابله" (الألوسيّ، 1978)، وهنا يتضح دور التقديم والتأخير في الألفاظ في العملية الحجاجيّة، ودورها في تسريع تلقيم المتلقي حججا لا قبل له بها في وقت مبكر من العملية الحجاجيّة.

والخطاب في قوله تعالى: (وَلَوْ أَعْجَبَكَ) للنبيّ والمقصود أمته، كما نلحظ أسلوب الحذف كحجة لغويّة قويّة، فحذف جواب (لَوْ)؛ لدلالة ما قبله عليه، ومسارعة في الأتيان بفعل الأمر (فَٱتَّقُواْ)؛ للفت انتباههم إلى ضرورة المسارعة في التوبة إلى الله، وحذْفُ جوابها نقلها من الشرطيّة إلى المبالغة والتأكيد، "لو الزائدة أو الوصلية لا تحتاج لجواب –في المشهور–، فهي كـ(إن) الوصلية، بحيث يمكن وضع (لو) مكان (إن) فلا يفسد المعنى" (حسن، 1966)، وجاء في (إن) "(إن) إنواع كثيرة، منها: (إن) الزائدة، وتسمى الوصلية، أي الزائدة لوصل الكلام بعضه ببعض، وتقوية معناه"(حسن، 1966).

وعدل عن (إن) إلى (لَوْ)؛ لما يتصف به واو (لَوْ) من رخاوة (جريان الصوت) معه، وسعة في المخرج، أكثر مما هو في نون (إن)، والأمر ذاته عند المقارنة بين همزة (إن) ولام (لَوْ)، فاللام تمتاز عن الهمزة بطول صوتها وسعة مخرجها، وهذا ينبئ بزيادة المدة المستقبلية، أي لو أعجبك اليوم وغدا أو بعد هذا، فالأمر لا يتغير عن كون الطيب أفضل من الخبيث، "فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث" (أبو السعود، 1970).

ومخاطبة المؤمنين بـ (يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ) رفعة لمقامهم ومدحا لهم؛ حيث إن أداة النداء (يا) مستعملة في البعيد، ودفعا لمزيد من التحفز للنظر والتمحيص بين الأمور، وبيان أن العقول مظنة للتفكر والتمييز "فخاطب الناس بصفة؛ ليومئ إلى أن خلق العقول

فيهم يمكنهم من التمييز بين الخبيث والطيب؛ لاتباع الطيب ونبذ الخبيث"(ابن عاشور، 1997)، وفي ذلك إشارة إلى أهمية العقل في دلالة الإنسان على الحق وإبعاده عن الضلال، كل ذلك من أجل توجيه الناس إلى الاعتراف بهذا الدين "أما الخطاب القرآنيّ فهو منظومة النصوص القرآنيّة التي خاطب الله تعالى بها عباده، وهو يحمل رسالة تهدف إلى التأثير على عقول الناس وقلوبهم في كل زمان ومكان، وتوجيهها إلى الاعتراف بهذه الرسالة، والالتزام بمطلوباتها، ويقوم على جوانب عقليّة فكريّة، ونفسيّة، ومعرفيّة، واجتماعيّة، بتشكلات أسلوبيّة مؤثرة" (القضاة، 2009).

ثانيا: خطاب الكفار:

قال الله تعالى في سورة يونس عليه السلام:

)وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓۚ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ). (يونس 15–16).

جاء الخطاب في الآيتين السابقتين موجها إلى الكفار، قال الفخر الرازي: "إن وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر منكرين للبعث والقيامة" (الرازيّ، 1990)، وكفى بهذه دليلا على كفرهم. وقد جاء هذا الخطاب ضمن سياق الدفاع عن القرآن الكريم، أو بيان منزلته ودرجة إحكامه وبيانه؛ حيث جادل الكفار ومشركو العرب آنذاك أن القرآن الكريم ليس بوحي، وإنما هو من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أسلوب آخر سلكوه في تكذيب الدعوة، أو تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم، في أن يكون هذا القرآن وحيا من الله.

إن الحجاج القرآني يتميز بمخاطبة الناس كافة، حسب قدراتهم الفكرية، وخلفياتهم العلمية، وموروثاتهم الدينية، وتعدد نزعاتهم، ولم تقتصر دعوته على فئة معينة أو زمان معين.(بو صلاح 2015).

ويرى الباحث أنه يمكن إدراج هذا النوع من الآيات ضمن دائرة الخطاب الإقناعيّ، الذي رام الوحي من خلال توجيه النبي صلى الله عليه وسلم لمخاطبة الناس بها ترويضَ النفوس؛ لقبول هذه الدعوة وتوطينها على قبول الحق وترك المكابرة والعناد، والاستراتيجية في الخطاب الإقناعيّ "لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة، تجر الغير جرا إلى الاقتناع برأي المحاور"(عبدالرحمن، 2000)؛ لذا جاء النص الإلهي مفعما بجملة من الأدوات الحجاجيّة في دفاعه عن قلب رسالته وعمودها الفقريّ وهو القرآن الكريم؛ إذ إن نجاح الدعوة وانطلاقها بين القبائل والشعوب؛ يكمن في التصديق أولا بماهية هذه الوثيقة؛ فالتصديق هو العتبة الأولى في سلم المفاوضات التي ستدور بين الرسول صلى الله عليه وسلم والطرف الآخر المتلقي لهذا النص، المتمثل هنا في الكفار والمشركين من العرب، وغيرهم في الجزيرة وأطرافها. فبإقناعه بصدق هذا النص حصر لأفق التفكير عنده، وجعله ملزما في إطار دائرة هذا الكتاب الكريم، إذ إنه بالتسليم به؛ يضع لنفسه القيود من حيث لا يحتسب، وبالتالي تسهل عملية نفوذ الدعوة إلى قلبه.

والناظر في الآية يجدها مفعمة بالحجج اللغوية المنتظمة في سلم يمكنها من أداء دورها في إقناع المتلقي، فالحجاج هو "النظام التعبيريّ الذي يستند إلى جملة من المبادئ والآليات الناظمة للدفاع عن قضية ما وتجليتها وإثباتها والبرهنة عليها"(سرحان، 2013)، فاللّغة تحمل بصفة ذاتيّة وجوهريّة وظيفة حجاجيّة، وقد شخّص القرآن الكريم طبيعة المشكلة مع الكفار، وأثبت من خلال بنائه الفعل للمجهول أن المسألة ليست في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما في قلب الرسالة المحمدية، وفي هذا سدّ لكثير من الطرق في وجه المتلقي، التي يمكن أن يسلكها من أجل الطعن في الرسالة، "وفي الالتفات من خطابهم إلى الغيبة (وإذا تتلى عليهم...) إعراض عنهم،... وإيراد فعل التلاوة مبينا للمفعول مسندا إلى الآيات دون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ببنائه للفاعل للإشعار بعدم الحاجة لتعيين التالي، وللإيذان بأن كلامهم في نفس المتلو، ولو تلاه رجل من إحدى القريتين عظيم" (الألوسيّ، 1978).

وقد بدأ الوحي إجابتهم بحصر زمن طلبهم التغيير والتبديل، وهو زمن تلاوة القرآن عليهم، وإلا فهم منصرفون عن الانشغال به في غير هذا الوقت، وهذا يدلل على عدم اهتمامهم بالمسألة أصلا، وإنما مرادهم صرف النبي صلى الله عليه وسلم عنهم.

ولـ (إذا) معان عدة منها: "أن تكون ظرفا للمستقبل متضمنة معنى الشرط، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية... ويكون الفعل بعدها ماضيا كثيرا، ومضارعا دون ذلك" (ابن هشام، 2009) ولكون العامل في الظرف فعلا ماضيا "علم أن قولهم هذا واقع في الزمن الماضي، فكانت إضافة الظرف المتعلق به جملة فعلها مضارع، وهو (تتلى)، دالة على أن ذلك المضارع لم يُرَد به

الحال أو الاستقبال؛ إذ لا يتصور أن يكون الماضي واقعا في الحال أو الاستقبال؛ فتعين أن اجتلاب الفعل المضارع لمجرد الدلالة على التكرر والتجدد، أي ذلك قولهم كلما تتلى عليهم الآيات" (ابن عاشور، 1997).

ثم أخبر القرآن الكريم عنهم بالجملة الفعلية (لا يرجون)؛ دلالة على تكرار عدم رجاء اليوم الآخر أو الإيمان به، زيادة على فتح الزمن على أفق مطلق في استمراريته، وهذا يدلل على عمق مستوى الكفر وتشرب القلوب به. وهذا الوصف سيظهر لنا أنه مدعاة لجلب جميع هذه الآليات اللّغويّة في حجاج هؤلاء؛ لأن إثبات حجم خطيئة الخصم مهم في إثبات الحجة عليه.

ونلاحظ دقة رسم القرآن الكريم للمشهد، فقد يُظهر المحاجج شيئا ويُضمر شيئا آخر، كما حاول الكفار بقولهم: (ائت بقرآن غير هذا أو بدله)، فهذا التخيير تقرير منهم باتهامهم إياه بتأليف القرآن، وإن كان في ظاهره بحثا عن الحقيقة، وإطماعا منهم للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه إذا نفّذ ما أرادوا؛ سيؤمنون به، لا سيما وأنهم قد أظهروا له شيئا من التنازلات، فالإتيان بغيره يعني تغييره بالكلية، ثم عدلوا عن ذلك بقولهم: (أو بدله)، وهذا يعني تبديله بالجزئية أي حذف ما يسبهم أو يسب آلهتهم، وقبل هذا كله فقد أبقوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على لفظة القرآن، فقالوا: (ائت بقرآن)؛ ظنا منهم أن هذا الأسلوب الاستدراجيّ ينطلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن المهم عنده هو الاسم وليس المسمى.

وجاء جواب القرآن الكريم على شقين (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي)، و(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم)؛ كما أن كلامهم حمل معنيين: أحدهما ظاهر وهو الطلب بالتغيير والتبديل، والآخر خفيّ وهو أن هذا القرآن منحول من عند النبي صلى الله عليه وسلم.

وجاء الجواب بأبلغ صيغ النفي وهو: (ما يكون لي أن أبدله) أي ما يكون التبديل ملكا بيدي، وأتى بأن المصدريّة والفعل، ولم يأت بالمصدر (تبديله)؛ إذ إن المضارع يفيد التكرار، واستغراق الزمن الحاضر والمستقبل، فلو حصل التبديل مرة؛ سيعاودون الطلب بالتبديل مرات ومرات، بينما لفظة (تبديله) توحي بأن الأمر يقع لمرة واحدة، وهذا غير متوقع منهم؛ لما عرف عنهم من المراوغة والخداع، إذ إنّ من عادتهم طلب التغيير كلما تليت عليهم الآيات. واكتفى بالجواب عن الشق الثاني (أو بدله)؛ لأنّ "التبديل أقرب إلى الإمكان من المجيء بقرآن غير هذا القرآن، فجوابه عن الأسهل يكون جواباً عن الأصعب" (الرازيّ، 1990).

ولفظة (تِلقاء) على وزن (تِفعال) بكسر التاء شذوذا، والميزان (تَفعال) في ما سواها، ومعناه من جهة نفسي، وهي جملة، مؤكدة لغيرها (ما يكون لي أن أبدله)، وليس معنى هذا أنه ممكن التبديل من تلقاء الله، فالحال لا تعني التقييد هنا. ثم حصر وظيفته بأسلوب الحصر (إن + إلا)، فليس له الخروج عما يوحى إليه، "واقتضت (إن) النافية وأداة الاستثناء قصر تعلق الإتباع على ما أوحى الله، وهو قصر إضافي أي لا أبلغ إلا ما أوحي إليّ، دون أن يكون المتبع شيئا مخترعا حتى أتصرف فيه بالتغيير والتبديل، وقرينة كونه إضافيا وقوعه جوابا لرد اقتراحهم" (ابن عاشور، 1997).

ثم نسب الخوف من الوعيد لنفسه (أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)، ولم يضفه لهم، ولم يتهددهم بشيء من العذاب، وإن كان الكلام يشي بأن العذاب سيطالهم إن أصروا على الكفر، وهذا معنى خفيّ، فلم يقصد إرهابهم؛ لأن المقام مقام إقناع واستلطاف منه لهم؛ علهم يذعنون لما يقول. ومن هنا يرى الزمخشريّ إبعاد احتمال أنهم طلبوا التبديل عن طريق الوحي فهم مستهزئون حتما (الزمخشريّ، 1980)؛ لأن الاستهزاء هو الذي يجلب لهم العذاب.

ومن هذا الشاهد وغيره يظهر لنا أن الإسلام لم يقصد إلى التعنيف والإرهاب، ولم يعمد إلى السيف، بل قرع الحجة بالحجة؛ حتى يُظهر للعالم أجمع أن مسألة تحبيب الناس بالإسلام هي المنهج الذي جاءت الدعوة به لا إرغامهم عليه، فـ "الحجاج القرآني هو الحوار الذي يراد به الإبانة والإبلاغ والإقناع، وذلك باستخدام الدلائل العقليّة، والعلميّة، واللغويّة، والفطريّة، والواقعيّة، والبيّنات القرآنيّة، والكونيّة، في الأنفس والآفاق؛ إثباتا لحقيقة الإسلام والإيمان بالله"(ميارة، 2006).

وأتى بلفظة (ربي) ولم يقل (الله)؛ لكونهم يؤمنون به ربا، ولكن الخلاف على الألوهية، وإشعارهم بأن الرب المتصرف والقائم على حوائجهم المادية التي بين أيديهم يستحق العبادة، فالتذكير بالعطايا ينمي خلق الاستحياء في قلب المخاطب، وبالتالي يأخذ بيده إلى شيء من الملاينة، فكيف له أن يقطع يدا مبسوطة إليه بالنوال!؟ ودل عموم السياق أن تغيير القرآن أو التبديل فيه ممتنع؛ ولهذا لم يوح للرسول صلى الله عليه وسلم هنا أن يقول: (إن شاء الله) كما هو في بداية الجواب الثاني (قل لو شاء الله...).

وفي الآية التالية: (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم...) " صُدِّر بالأمر المستقل؛ إظهارا لكمال الاعتناء بشأنه، وإيذانا باستقلاله مفهوما وأسلوبا، فإنه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته" (الألوسيّ، 1978)، واستهل الجواب الثاني بفعل المشيئة، وقد حذف مفعوله في جملة الشرط، إذ التقدير لو شاء الله أن لا أتلوه عليكم ما تلوته؛ وذلك لدلالة الجزاء عليه، "وإنما بني

الاستدلال على عدم مشيئة الله نفي تلاوته؛ لأن ذلك مدعى الكفار؛ لزعمهم أنه ليس من عند الله؛ فكان الاستدلال إبطالا لدعواهم ابتداء وإثباتا لدعواه مآلا" (ابن عاشور، 1997). وكذلك جواب (لو) يقتضي استدراكا مطردا في المعنى بأن يثبت نقيض الجواب، "ولهذا يصح في كل موضع استعملت فيه أن تعقبه بحرف الاستدراك" (ابن هشام، 2009)، فالتقدير: لو شاء الله ما تلوته ولكنني تلوته عليكم، وتلاوته دليل الرسالة؛ لأنّه يتضمن إعجازا علميا وبلاغيا.

وهنا حاججهم بالمنطق الذي بإمكانهم الاحتكام إليه، فليس الأمر خارجا عن مستويات إدراكهم العقليّ، ولفت نظرهم إلى المقارنة بين الحالتين اللتين عاشهما فيهم قبل النبوة وبعدها، إذا لو كان القرآن من عنده لاستلزم هذا الإبداع البلاغيّ والعلميّ شيئا من المقدمات تظهر في حياته الأولى قبل البعثة، لكن ذلك لم يحدث فدل على أن ما جاء به في حياته ما بعد البعثة وحي رباني.

وجيء بأداة النفي (ما) في الجوابين لبلاغتها في إيصال المقصود إلى المتلقي. و"لكلمة تلوته هنا من الوقع ما ليس لغيرها؛ لأنّها تتضمن تاليا كلاما، ومتلوا، وباعثا بذلك المتلو، فبالأول تشير إلى معجزة المقدرة على تلاوة الكتاب مع تحقق الأمية؛ لأن أسلوب الكتب الدينية غير الأسلوب الذي عرفه العرب من شعرائهم وخطبائهم، وبالثاني تشير إلى القرآن الذي هو معجزة دالة على صدق الآتي به؛ لما فيه من الحقائق والإرشاد الدينيّ الذي هو من شأن أنبياء الأديان وعلمائها، كما قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون)، وبالثالث تشير إلى أنه كلام من عند الله تعالى، فانتظمت بهذا الاستدلال دلالة صدق النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته عن الله؛... فهي مشعرة بإبلاغ كلام من غير المبلغ" (ابن عاشور، 1997).

وعدى الفعل (أدراكم) بالباء وهو الأكثر في حكاية سيبويه.

وقرأ البزيّ عن ابن كثير (ولأدراكم به) بلام التوكيد بدلا من لا النافية عطفا على جواب (لو)، "ويطلق العمر على المدة الطويلة التي لو عاش المرء مقدارها لكان قد أخذ حظه من البقاء، وهذا هو المراد هنا؛ بدليل تنكير (عمرا)، وليس المراد لبثت مدة عمري؛ لأن عمره لم ينته، بل المراد مدة قدرها قدر عمر متعارف، أي بقدر مدة عمر أحد من الناس، والمعنى لبث فيكم أربعين سنة قبل نزول القرآن" (ابن عاشور، 1997).

ثم إن قوله تعالى: (لبثت) –هذا الملفوظ الحجاجيّ– يحمل في طياته ملمحا حجاجيّا بارزا لا يظهر في ما سواه من مفردات نحو: (قضيت، مكثت)؛ لما تفيده هذه الكلمة من طول في المدة مع عدم انتظار انقضاء الوقت، وما تشعر به كذلك من ملازمته إياهم؛ ولمّا كانت هذه حاله، فهي مشعرة بعدم تخطيطه للقيام بعمل ما؛ وبالتالي فلم يعهدوا عليه التربص بهم، أو إحداث تغيير في حياتهم. وأتى بالظرفية (فيكم) على معنى في جماعتكم أي بينكم، ولم يقل بينكم، أو عندكم، أو معكم؛ لأن هذه الألفاظ تقصر عن المعنى الذي تؤديه لفظة (فيكم)؛ لما تفيده هذه اللفظة من المعايشة والاختلاط بهم؛ وبالتالي هم أعرف الناس به وبحاله من الأمية، فكيف له بأن يأتي بهذا الكتاب العظيم!؟ واختار لفظة (تعقلون)؛ لأن العقل هو أُولى درجات الإدراك، ومفعوله محذوف؛ لدلالة السياق عليه، والتقدير أفلا تعقلون أن مثل هذا الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكتاب لا يكون إلا بوحي، أو نعتبر (تعقلون) فعلا لازما فلا يقدّر له مفعول أي أفلا تكونون عاقلين. ثم إن الاستفهام بحد ذاته يعتبر عاملا مهما في العملية الحجاجيّة، لما له من أبعاد نفسية على المتلقي؛ إذ يضيق عليه سبل الخلاص، والإفلات مما هو فيه، فلا يعد يفكر إلا في ما هو محدد له في السؤال. فختم المحاجّة بسؤال استنكاريّ بدأه بالهمزة التي تنفرد بأحقيتها –من بين أدوات الاستفهام– للصدارة، إذا دخلت على جملة معطوفة بالواو، أو الفاء، أو ثم (ابن هشام، 2009)؛ وذلك لتحقيق عنصر المفاجأة لهم، الذي يتحقق من وقوع الاستفهام في الصدارة، ثم ربط بين جملة (لبث) وجملة (تعقلون) بالفاء العاطفة؛ ليظهر ما بين الحالتين من بعد في المسافة، فكان تقريبه الصورتين أظهر لما بينهما من تنافر، فلا ينبغي لهم بعد أن عاش معهم هذه المدة أن لا يعقلوا سر هذا الوحي.

ثالثا: خطاب أهل الكتاب:

قال تعالى في سورة آل عمران:

(قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ، يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ، هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ). (آل عمران 64–66).

توافرت في هذه الآية الكريمة جملة لغويّة بليغة، أسهمت في إقامة الحجة الدامغة على هؤلاء المشركين، ويظهر من هذا

الحرص على إيمانهم، وقد جاءت آية آل عمران في معرض محاججة النصارى، ومحاولة ردّهم إلى التوحيد، وإبعادهم عن اتخاذ المخلوق معبودا من دون الله، وقد امتدت رقعة المحاججة في سورة آل عمران، فبعد أن حاججهم وأورد عليهم الدلائل والبراهين، ثم دعاهم إلى المباهلة فامتنعوا، عاد هنا إلى المحاججة ثانية، ولكنه دعاهم إلى كلمة سواء، وهذا يدلل على أن الكلام مبني على ترك المجادلة والمشاحنة والعدول به إلى التلطف، والحوار هو "تبادل الكلام ومراجعته بين طرفين؛ بهدف الوصول إلى نقاط الالتقاء في أجواء يغلب عليها طابع الهدوء والاتزان"(زادة، 2010).

وقد بدأ دعوتهم بقوله: (يا أهل الكتاب)؛ لأن الخطاب في هذه الآية خطاب تضامنيّ، وهو من أحسن الأسماء، وأكمل الألقاب؛ حيث جعلهم أهلا لكتاب الله، وفي الخطاب التضامني "يحاول المرسل أن يجسد بها درجة علاقته بالمرسَل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالا هي محاولة التقرب من المرسَل إليه، وتقريبه"(الشهري، 2004)، وهو ما يطلق عليه طه عبد الرحمن بالتخلّق، (عبدالرحمن، 1998) وتقول نزال: "وأما المحاورة فهي مراجعة الكلام في أسلوب لا تقصد به الخصومة"(نزال، 2003).

وجملة (قل يا أهل الكتاب) عند ابن عاشور "بمنزلة التأكيد لجملة (فقل تعالوا ندع أبناءنا)؛ لأن مدلول الأولى احتجاج عليهم بضعف ثقتهم بأحقية اعتقادهم، ومدلول هذه احتجاج عليهم بصحة عقيدة الإسلام؛ ولذلك لم تعطف هذه الجملة" (ابن عاشور، 1997).

ولفظة (تعالوا) فعل أمر مبني على حذف النون (القاضي، 2010) وهي مستعملة في طلب الاجتماع على كلمة سواء، وهو تمثيل جعلت الكلمة المجتمع عليها بشبه المكان المراد الاجتماع عنده، "ومن أسماء فعل أمر... وهلمّ بمعنى أقبل، وتعال" (حسن،1966)، وهي في الأصل من تعالى يتعالى، إذا قصد العلو، وفي هذا تشريف للمدعو، ثم أصبحت للأمر بالقدوم (ابن عاشور، 1997).

وكلمة (سواء) هنا اسم مصدر الاستواء. وقد حسن ابن عاشور قول ابن عطية في معنى سواء " بمعنى ما يستوي فيه جميع الناس، فإن اتخاذ بعضهم بعضا أربابا لا يكون على استواء حال، وهو قول حسن" (ابن عاشور، 1997)، والسواء هو العدل ويقال فيه سِوىً وسُوىً (الفراء، 1955)، "فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل" (الرازيّ، 1990)، وعند الألوسيّ: "مستوية أي لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن، أو لا اختلاف فيها بكل الشرائع" (الألوسيّ، 1978). وهذا كله من الوصف لطبيعة الكلمة، من شأنه أن يكون مدعاة إلى أن يقبلوا الجلوس إلى طاولة المفاوضات، وهذا يبعث الاطمئنان في نفوسهم، بأنهم في مأمن من الغش، أو الخداع؛ فتقترن الدلالة المعجميّة مع الدلالة النفسية في تبليغ الرسالة.

ولأن النعت يتبع المنعوت "في اثنتين من خمسة دائما وهما واحد من أوجه الإعراب وواحد من التعريف والتنكير" (عبد الحميد، 2015)؛ جاز وصف لفظة (كلمة) المؤنثة بلفظة (سواء) المذكرة.

و(ألا نعبد) بدل من (كلمة)، وردّ ابن هشام قول جماعة بأن (ألا نعبد) بدل من (سواء)؛ بحجة أن صلة الحرف المصدريّ معرفة، ولا يجوز وصف بالنكرة بها (ابن هشام، 2009). وقال ابن عاشور: "والحق أنه مردود من جهة مراعاة الاصطلاح، لا من جهة المعنى؛ لأن (سواء) وصف لـ (كلمة)، و(ألا نعبد) لو جعل بدلا من (سواء) آل إلى كونه في قوة الوصف لـ (كلمة)، ولا يحسن وصف (كلمة) به." (ابن عاشور، 1997).

والضمائر من أدوات الرابط ذات الحضور الفاعل في النص القرآنيّ، "هذه الأدوات والراوبط تثري العربية بأساليب كثيرة ومتنوعة، صالحة لمقامات تواصلية متباينة، حسب إرادة المتكلم وقصده" (بو صلاح، 2015)، و"ضمير (بيننا) عائد على معلوم من المقام، وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والمسلمون؛ ولذلك جاء بعده (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون). ويستفاد من قوله (ألا نعبد إلا الله) – إلا آخره – التعريض بالذين عبدوا المسيح كلهم" (ابن عاشور، 1997). وعند الألوسيّ أن قوله تعالى: (ولا نشرك به شيئا) "تأسيس، والظاهر أنه تأكيد لما قبله، إلا أن التأسيس أكثر فائدة" (الألوسيّ، 1978). إذ إن نفي الشركاء هو المطلب الرئيس، وهي القصديّة أو الغائيّة من وراء العملية الحجاجيّة، فنفى بها اتخاذ البعض أربابا من خلال نفيه اتخاذ الشيء شريكا.

ويقول الرازي: " إنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء: أولها (أن لا نعبد إلا الله)، وثانيها (أن لا نشرك به شيئا)، وثالثها (أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)، وإنما ذكر هذه الثلاثة؛ لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة، فيعبدون غير الله وهو المسيح، ويشركون به غيره؛ وذلك لأنهم يقولون إنه ثلاثة: أب وابن وروح القدس" (الرازيّ، 1990).

وفي تقديمه في المطلوبات (أن لا نعبد إلا الله) ملفوظ حجاجيّ بارز، يدلل على دقة رسم القرآن الكريم للموقف الحجاجيّ،

فبدأ بالأهم عنده، وهي كلمة التوحيد، وصرْف العبادة عن المسيح؛ كونها الأكثر شيوعا وقتئذ، وهذا ما يسمى عند أهل الصنعة (الحجاج) بالهرميّة في العمليّة الحجاجيّة، أي أن يحرص المحاجج على ترتيب أولويّاته، ويبدأ بالأهم، ويحرص على الثوابت.

ويفهم من قوله (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) "أي لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم، كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما: اعترف بأني أنا الغالب، وسلّم لي الغلبة. ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعناه: اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون؛ حيث توليتم عن الحق بعد ظهوره"(الزمخشريّ، 1980). وقوله تعالى: "(فإن تولوا) جيء في هذا الشرط بحرف (إن)؛ لأن التولي بعد نهوض هذه الحجة وما قبلها من الأدلة غريب الوقوع؛ فالمقام مشتمل على ما هو صالح لاقتلاع حصول هذا الشرط، فصار فعل الشرط من شأنه أن يكون نادر الوقوع مفروضا، فإن كان ذلك منهم فقد صاروا بحيث يؤيس من إسلامهم؛ فأعرضوا عنهم وأمسكوا أنتم بإسلامكم، وأشهدوا أنكم على إسلامكم. ومعنى هذا الإشهاد التسجيل عليهم؛ لئلا يظهروا إعراض المسلمين عن الاسترسال في محاجتهم في صورة العجز والتسليم بأحقية ما عليه أهل الكتاب، فهذا معنى الإشهاد عليهم بأنا مسلمون." (ابن عاشور، 1997).

واقترنت الفاء بما له الصدارة (إن)، واقترنت كذلك بجواب الشرط الجملة الفعلية (قولوا)؛ إذ إن من مواقعها دخولها على جواب الشرط إذا كان فعلا إنشائيا (ابن هشام، 2009). ودخولها هنا يشير إلى التعقيب في الفعل، والتعقيب كل حسب طبيعته، فمنها: ما يقتضي الإمهال، ومنها ما يقتضي الإسراع، والمراد من التعقيب في هذه الآية هو الإسراع في إجابتهم إن حصل منهم فعل التولي.

ثم عاد القرآن الكريم وخاطبهم بـ (يا أهل الكتاب)، تذكيرا لهم بهذه المزية وهذا الشرف، ولإضفاء مزيد من التحبب والتودد إليهم بغية إسلامهم أو الكف عن معاداة المسلمين. و(يا) النداء أداة لمناداة القريب، وكأنه أراد أن يشعرهم بقربهم من نفسه؛ حتى يهيّئ لجوّ حجاجيّ يؤهل لحصول المطلوب.

وبدأهم بالسؤال، وللسؤال أهمية في العملية الحجاجيّة تكمن في حصر أفق المتلقي، وسدّ كل ما يمكن أن يهرب من خلاله من العمليّة الحجاجيّة، ويصرف تركيزه إلى جهة واحدة، يحددها الباث من خلال هذا السؤال، تخدم قصديّته أو غائيّته التي من أجلها يحاجج.

ولتضافر الروابط داخل النص حجاجيّة قويّة؛ إذ تسهم في كشف المزيد من نقاط ضعف المتلقي "ولعل السر في جمال أسلوب الاستفهام والعدول إليه عن أسلوب النفي هو أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير؛ ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي كان في توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداء" (لاشين، 1977).

والسؤال هنا شبه إنكاريّ مقصده التنبيه على الغلط. ووقعت ما الاستفهامية بعد لام التعليل؛ لبيان أن سبب المحاجّة غائب، ولتقبيح وتشنيع ما هم فيه من تيه وضياع؛ وعليه فهم مخطئون بإنشاء المحاجّة أصلا.

إن الغاية من استخدم لفظة (تحاجّون) باعتبارها ملفوظا حجاجيّا هو بيان درجة قبحهم في المسألة، وأنهم قفزوا إلى دائرة التخطئة والاتهام من خلال هذه المحاجّة، فلم يأتوا لاستيضاح الأمر بتروٍ وحسن أدب.

ومدُّ الألف هنا بما يسمى بالمد اللازم عند أهل القراءات يحمل دلالة الإنكار عليهم، وكأنه يصاحب ذلك المد علو الصوت؛ إنكارا عليهم وتقبيحا لفعلهم. وهذا سبب معنوي للمد ويقصد به المبالغة في النفي ويسمى مد التعظيم أيضا (جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2015).

ثم حذف المضاف (دين إبراهيم) أو (شريعة إبراهيم)؛ لأنه معروف أن لا مجادلة في الذوات، وإنما الحرب على الدعوة وهذا واضح في غير مكان في القرآن الكريم، سبق الإشارة إلى بعضها في هذا البحث.

وقوله تعالى: (أفلا تعقلون) فيه تجهيل لهم؛ لعدم إدراكهم المعقول. والملفوظ الاستفهامي يرسم للمتلقي طريقا ليس له الخروج عنه، وببحثه عن إجابة لهذا السؤال اعتراف مضمر بعجزه، "إن الملفوظ الاستفهامي يمكنه إن يؤدي في التأليف الحجاجيّ وظيفة الحجة، كما يؤديها أي ملفوظ آخر، وإذا فحصنا هذه الملفوظات الاستفهامية ذات الوظيفة الحجاجيّة سننتهي إلى خلاصة أساس وهي أن القيمة الحجاجيّة للملفوظات الاستفهاميّة الواردة ضمن التأليف الحجاجيّ في موقع الحجة تتمثل (أي هذه القيمة) في التوجّه الحجاجيّ الذي يختص به المحتوى القضويّ لهذه الجمل بعد تحويلها من صيغة الاستفهام إلى صيغة النفي " (الراضي، 2014).

ومجمل كلام أهل التفسير في بيان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن كلا من اليهود والنصارى ادّعوا أنهم على دين إبراهيم،

وأن هذا الإسلام حادث على القواعد والأصول. فكيف لهم ذلك!؟ وما جاءت التوراة والإنجيل إلا من بعد إبراهيم. وإن أُخذ على المسلمين قولهم إن إبراهيم على دين الإسلام؛ وما نزل القرآن إلا من بعد إبراهيم، فالحجة – من منظورهم – قائمة على الثلاثة: المسلمين، النصارى، واليهود فهم فيها سواء. فإجابتهم ظاهرة، وهي أن القرآن الكريم قد صرح أن إبراهيم على دين الإسلام؛ لقوله تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (آل عمران 67). في حين لم يصرح أيّ من التوراة أو الإنجيل بذلك، وكفى بها حجة عليهم.

ويورد الفخر الرازيّ في تفسيره ردا منطقيا لإبطال دعوة كل من اليهود والنصارى، وهذا من باب المعقولية التي تحكم المسألة الحجاجيّة " أما إن النصارى ليسوا على ملة إبراهيم فالأمر فيه ظاهر؛ لأن المسيح ما كان موجودا في زمن إبراهيم، فما كانت عبادته مشروعة في زمن إبراهيم لا محالة، فكان الاشتغال بعبادة المسيح مخالفة لملة إبراهيم لا محالة، وأما إن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم فذلك لأنه لا شك أنه كان لله سبحانه وتعالى تكاليف على الخلق قبل مجيء موسى عليه السلام،... فإذن قد كان قبل مجيء موسى أنبياء، وكانت لهم شرائع معينة، فإذا جاء موسى فإما أن يقال إنه جاء بتقرير تلك الشرائع، أو بغيرها، فإن جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة،... واليهود لا يرضون بذلك، وإن كان قد جاء بشرع آخر سوى شرع من تقدمه فقد قال بالنسخ، فثبت أنه لا بد وأن يكون دين كل الأنبياء جواز القول بالنسخ، واليهود ينكرون ذلك؛ فثبت أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم" (الرازي، 1990)، وهذا استدلال منطقي ينتهج في إبطال حجتهم، يصعب على الخصم أو المتلقي أن يجد فيه خللا أو ينسب إليه نقصا، ويعتمد عليه في الحجاج لنجاعته وسرعة تأثيره.

ثم جاء بـ (ها) التنبيه التي تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة (ها أنتم أولاء)، وقيل إنما كانت داخلة على الإشارة فقدمت، وأعيدت في (ها أنتم ها أولاء)؛ للتأكيد (ابن هشام، 2009). وجيء باسم الإشارة (هؤلاء) للتحقير والتنقيص (الألوسيّ، 1978). وذكر اسم الإشارة ينطوي على رابط حجاجيّ بغيته التعجب من حال المخاطب؛ إذ كيف يحاجج فيما لا علم له به.

وقوله تعالى: (وأنتم لا تعلمون) هذا الملفوظ وإن كان الظاهر منه أنه خبري إلا أنه ينطوي على جملة حجاجيّة، تدعم وتقرب من النتيجة التي يرمي إليها القرآن الكريم؛ إذ هي تؤكد عدم فهم وقصور إدراكهم لحقيقة الأشياء، لا سيما وقد جاءت بعد إثبات علم الله المطلق بحقيقة الأشياء، فإثبات الأمر له ونفيه عنهم مبالغة في تحقيق المقصود.

وقوله: (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) والمقصود به سيدنا عيسى عليه السلام هو من باب تقديم الموافقات على المخالفات، وهذا الأمر من شأنه بسط النفوس لقبول الحق.

وأسلوب التكرار أداة من أدوات الحجاج في تثبيت وبيان خطأ الطرف المقابل، وبتكرار لفظة الحجاج ثلاث مرات (تحاجّون، حاججتم، تحاجّون)؛ دلالة على ادعائهم دون دليل، وإلماح إلى قلة تأدبهم في خطابهم مع النبي الكريم. وكثرة المِراء والجدال دليل على ضعف الحجة وقلة الحيلة.

رابعا: خطاب المنافقين:

قال الله تعالى في سورة التوبة:

(يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ، وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ، لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ). (التوبة 64–66)

من الواضح أن الآية في المنافقين، والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، وهذا الفعل لا يستدعي من المخاطِب أن يُظهر جانبا من التودد أو التلطف في الحديث معهم، بل ينبغي كشف أمرهم وتقريعهم وردعهم؛ لأنهم عرفوا ثم جانبوا الصواب؛ بغية إلحاق الأذى في المسلمين خفية دون أن يشعر بحال خطرهم أحد من الناس، فالخطاب في هذه الآية يندرج ضمن استراتيجية الخطاب التقريعيّ التوجيهي، التي هدفت هنا إلى الحط من قيمة الخصم، و"يكون استعمال الاستراتيجية التوجيهية نابعا عن علاقة سلطويّة بين طرفيّ الخطاب"، (الشهري، 2004) ومن سمات الخطاب الذي يندرج تحت هذه الاستراتيجية أنه يعمد إلى هدفه بأقصر الطرق اللغوية، دون العناية بتزيين الكلام وترصيعه؛ ولهذا نلحظ قصر مبنى الآية، ووضوح كلماتها التي لا تدل إلا على توبيخ هؤلاء المنافقين وتقريعهم، كما سنلحظ الاتساق بين ما حوت من أفانين لغوية هادفة إلى التأثير والإقناع، ويجمل بين جزئيات هذا النص بحبل متين؛ حتى تؤدي كل فكرة منه ما أنيط بها من مهمات في محاججة المتلقي، "فلا تخالف نتائجه مقدماته

ولا تناقض أوائله أواخره، ولا تعارض دقائقه عمومياته"(الدريديّ، 2008)، وحتى تصب جميعها في قدرة هذا النص على الحجاجيّة ببنيته ككل.

إن الحجاج وتقنياته تدور حيث تدور شخصية المتلقي، والمتلقي في آيات "قل" قيد الدراسة على أربعة أنواع كما بينا، يعتمد كل صنف من هؤلاء الأربعة على مخزون فكري، وتقاليد مجتمعية تفرض عليه أسلوبا خاصا في تعنته أمام القران الكريم؛ ولذلك غاير القرآن الكريم في أسلوبه أثناء محاججته لهم وسوق الأدلة عليهم، ولا تخفى على الناظر في القرآن الكريم هذا المغايرة في أسلوب الحجاج، وهذا مبني في الأصل على معرفة واعية بطبيعة المتلقي المتغيرة، إذ إن معرفته تهيّئ لما يرومه الباث من تحقيق الإقناع والتأثير(الولي، 2005).

واختيرت صيغة المضارع في (يحذر)؛ لتدلل على أن هذا الحال ملازم لهم، فهم يعيشون حالة قلق وترقب، مترقبين فضيحتهم ومتوجسين من ذلك، وهذا هو حال من اقترف الجرم. ومن جانب آخر فإن هذا يشير إلى أنهم دائمو الوقوع في المحذور، ورسْمُ القرآن الكريم لهذه الحالة من خلال هذه الملفوظ الحجاجيّ (يحذر) تبكيت وإشعار لهم بأنه محيط بهم، ولا مخرج لهم عن محيط علمه، وهذا من شأنه إضعاف الثقة بالنفس؛ وبالتالي التسليم لهذا الكتاب العظيم.

وكيف لكافر أن يحذر مما ينكره ويجحده!؟ فهذا الحذر الصادر منهم – مع عدم إيمانهم – إما إن يكون دليلا على معرفتهم الحقيقة ولكنه العناد والكبر، وإما أنهم مستهزئون بحذرهم، و"ظاهر الكلام أن الحذر صادر منهم، وهذا الظاهر ينافي كونهم لا يصدقون بأن نزول القرآن من الله، وأن خبره صدق؛ فلذلك تردد المفسرون في تأويل هذه الآية، وأحسن ما قيل في ذلك قول أبي مسلم الأصفهاني: (هو حذر يظهره المنافقون على وجه الاستهزاء، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم بأنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره). وفي قوله (استهزئوا) دلالة على ما ذكرناه... فإن المنافقين لما كانوا مبطنين الكفر لم يكن من شأنهم الحذر من نزول القرآن بكشف ما في ضمائرهم؛ لأنهم لا يصدقون بذلك، فتعين صرف فعل (يحذر) إلى معنى يتظاهرون بالحذر؛ وعلى هذا القول يكون إطلاق الفعل على التظاهر بمدلوله من غرائب المجاز. وتأول الزجاج الآية بأن (يحذر) خبر مستعمل في الأمر، أي ليحذر، وعلى تأويله تكون جملة (قل استهزئوا) استئنافا ابتدائيا، لا علاقة لها بجملة (يحذر المنافقون)" (ابن عاشور، 1997).

وتكون تعدية (تنبئهم) إلى ضمير المنافقين على نزع الخافض، أي تنبئ عنهم، أي تنبئ الرسول صلى الله عليه وسلم بما في قلوبهم، وكأن السورة أعلم بهم من أنفسهم، ويجوز أن تكون تاء (تنبئهم) تاء الخطاب، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أي تنبئهم أنت بما في قلوبهم، فتكون جملة (تنبئهم بما في قلوبهم) في محل صفة لـ (سورة)، والرابط محذوف، تقديره تنبئهم بها، وهذا وصف للسورة في نفس الأمر.

والعدول أو الانزياح من أساسيات البلاغة العربية، ووجوده يضفي على الملفوظ الحجاجيّ بُعدا آخر يقود المتلقي إلى ما يصبو إليه الباث، علاوة على أنه يكشف الستار عن الأولويات عند المتلقي، "والعدول إلى التعبير بالموصول في قوله تعالى: (ما تحذرون) دون أن يقال: إن الله مخرج سورة تنبئكم بما في قلوبكم؛ لأن الأهم من تهديدهم هو إظهار سرائرهم، لا إنزال السورة، فذكر الصلة وافٍ بالأمرين: إظهار سرائرهم، وكونه في سورة تنزل وهو أنكى لهم" (ابن عاشور، 1997).

وفي الشطر الثاني من المحاجّة يستهل القرآن الكريم حجاجه باللام الموطِئة للقسم التي تفيد تأكيد المعنى وتقويته، لا سيما وأن الجملة شرطية مستقبلية، وهذا يثبت أن الأمر (أمر سؤالهم) سيقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتأكيد مشعر ومحفز لبيان ما سيكون عليه الجواب، ثم يعود للام المؤكدة والنون الداخلة على الفعل المضارع (ليقولن)، اللتين تؤكدان ما سيكون عليه جواب هؤلاء عند سؤالهم، وهذا من شأنه إضعاف ثقة الخصم بنفسه، فإذا تيقن أنك متبصر بأحواله، عالم بمآلات أموره، فعندئذ يدب الوهن في نفسه، فيكون للهروب أقرب منه للثبات.

وأسلوب الحصر بقولهم: (إنما)؛ القصد منه الحصر وصرف تفكيره صلى الله عليه وسلم إلى جهة أخرى (اللعب)؛ حذرا مما سيترتب عليهم من العذاب. والاستفهام (أبالله) إنكاريّ غرضه التوبيخ والتقريع على شنيع ما اقترفوا من جرم الاستهزاء، وتقديمه (أبالله وآياته ورسوله) من أجل القصر على إنكار الاستهزاء بالله والآيات والرسول، وتغليظ العقوبة عليه، ولو أخره لكان الإنكار لعموم الاستهزاء، دون الاهتمام بهذه الثلاثة، فحينئذ لا يناسب هذا الإنكارُ الجرم، وهذا القصر في الإجابة مناسب لقصر إجابتهم بـ (إنما) التي قالوها للتقليل من شأن المسألة برمتها. والتفصيل في قوله تعالى: (أبالله وآياته ورسوله) زيادة في توبيخهم والنكاية بهم وتشنيع أمرهم، من خلال تذكيرهم بعظم المستهزأ بهم، فإن تذكير المذنِب بعظم ذنبه من خلال بيان عظم المذنَب في حقه أدعى لاستشعار المذنِب بذنبه والاعتراف بخطيئته.

وجملة (لا تعتذروا) زيادة في التوبيخ، وفيها إشعار بعدم فائدة هذا العذر، فالعذر منهم وقع، فلا يصح النهي عنه، وإنما جيء

بالنهي عن العذر؛ لبيان عدم فائدته للمعتذر به. ثم أكد فعل كفرهم بـ (قد) التي تفيد التحقيق، أي أن كفرهم قد تحقق وقوعه. ونسب الإيمان إليهم وجرده من (أل) التعريف فقال: (إيمانكم) إشعارا منه بعدم قبوله هذا الإيمان الظاهريّ، وزيادة في نكايتهم، وإلا فهم كفّار أصلا، وإنما كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وكأنه يستهزئ بهم. وهذه كلها عناصر لغوية شحنت الجو العام بما يفضي بالعمليّة الحجاجيّة إلى بيان كذب هؤلاء المنافقين وبيان خبث نواياهم.

والمدقق في حجاجيّة القرآن الكريم في الأمثلة السابقة كلها يلحظ أن القرآن الكريم هدف إلى التأثير والإقناع بأسلوب علميّ رصين، مؤيد بالحجج والبراهين القاطعة على صدق ما جاء به، وهذه من سمات العملية الحجاجيّة بشكل عام، فالعملية الحجاجيّة "تهدف إلى تحقيق الإقناع العلمي اتكاء على البراهين المؤيدة، والقصد المعلن، والاستدلال الواضح، والأفكار المترابطة الخالية من المغالطات والأكاذيب، وبعبارة أخرى فإن الحجاج محكوم بغاية أخلاقية متمثلة بالصحة أو الخطأ، الأمر الذي يعني أن هناك مرجعية علمية للحجاج تكمن في أربعة أحكام، لا بد من توافرها في العملية الحجاجيّة، وهي: حكم الإحاطة،... وحكم الصدق,... وحكم الوضوح,... وحكم السداد" (سرحان، 2013).

الخاتمة:

الخطاب القرآنيّ جاء مبرزا مسألة التنوع في الطرح والأساليب؛ لأن هذه السمة هي التي تجعله أكثر وأعظم حجة بين الناس، ولا شك في أن جملة "قل" في القرآن الكريم التي هي محور الرسالة المحمّدية مضمّنة بأساليب تكفل لها النجاح، فالدعوة قائمة عليها، وهذه الأساليب الملفتة والتي تبعث على محاولة رصدها وتفسيرها لم تأت على نمط ثابت في جميع مواطنها، وإنما مختلفة من موطن لآخر تبعا لما يحوط العملية الحجاجيّة من تنوع في المتلقي؛ وبالتالي اختلاف في الرؤى، والأهداف المتوخى تحقيقها من هذه المحاجّة. وقد خرجت الدراسة بجملة من النتائج:

1. بدء خطاب المؤمنين –غالبا– بـ (يَسْلُونَكَ، وَيَسْتَفْتُونَكَ، قُلْتُمْ) نحو قوله تعالى: (يَسْلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ) (الأنفال 1)، وقوله تعالى: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ)(النساء 127)، وقوله تعالى: (أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا)(آل عمران 165)، وهذا يشير إلى أنهم هم من طلب الإجابة، ولم تكن أمرا مفاجئا، وهذا من حرصهم على تلقي الجديد؛ وبالتالي فإن امتثالهم للأمر سيكون سريعا.

2. خلو خطاب المؤمنين من لفظة (حجّ) أو إحدى مشتقاتها مثل: حاجوك، تحاجوني، حاججتم، وغيرها، وهذا يشير إلى أن كلا الطرفين لم يصلا إلى ما يستدعي الحجاج، وإنما هما على توافق في الأهداف، والأمر لا يعدو أن يكون استيضاحا من أجل الاتّباع.

3. قصر الإجابة على سؤال المؤمنين ووضوحها؛ إذ إن المتلقي لا يحتاج إلى إطالة أو مزيد من الدلائل والبراهين، فهو يستفسر ولا يحاجج بل هو قانع بما يأتيه من إجابة نحو قوله تعالى: (وَيَسْلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ)(البقرة 219).

4. حذف السؤال في خطاب المؤمنين لدلالة السياق عليه، والإتيان بالجواب مباشرة، نحو قوله تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ) (النساء 176).

5. إسناد الفعل إلى رسول الله –ﷺ– بصيغة الماضي: (قُلْتَ)، نحو قوله تعالى: (وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ)(التوبة 92)، وصيغة المضارع: (تَقُولُ)، نحو قوله تعالى: (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ)(آل عمران 124)، وعدم إسناده بصيغة الأمر؛ احتراما لذات المتلقي والتلطف معه، وهذا يتناسب مع الإستراتيجية المقصودة في مخاطبة المؤمنين وهي استراتيجيّة الخطاب التبجيليّ.

هذه البنية في الخطاب القرآنيّ الموجه للمؤمنين تنبئ بخطاب تبجيليّ توعويّ إرشاديّ، لا حجاجيّ يهدف إلى تقريع المخاطب، وإنما احترام الذات المتلقية والرفع من شأنها.

6. احتواء خطاب أهل الكتاب على لفظة (سل)، نحو قوله تعالى: (سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)(البقرة 211)، والسؤال أكثر إحراجا؛ بحكم احتياجه إلى الجواب، في حين أنه لم يتوجّه بالسؤال للمؤمنين.

7. ظهور لفظ الحجاج في خطاب أهل الكتاب واضحا جليّا، نحو قوله تعالى: (فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ)(آل عمران 20).

8. كثرة ورود فعل الأمر بعد (قُلْ) في خطاب أهل الكتاب، نحو قوله تعالى: (فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ) (آل عمران

61).

9. مطالبة الخطاب القرآني الكافرين بالنظر في مآلات الأمور من حولهم، من خلال تكراره للفظة (أرأيتم)، (أفرأيتم)، (أرأيتكم)، ومطالبته إياهم بالنظر في الدلائل الماديّة، نحو قوله تعالى: (قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ) (النمل 69)، حتى تكون هذه الرؤية أكثر حجيّة عليهم عند إقامة المحاجّة.

10. كثرة أسئلة الكافرين عن الغيبيات، نحو قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)(الإسراء 85)، وقوله تعالى: (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ)(الأعراف 187)، وهذه سمة المجادل الذي لا يبحث عن الحق، وإنما هدف التعجيز.

11. قلة الخطاب الموجّه للمنافقين –في آيات قل– مقارنة بالخطاب الموجّه لغيرهم وفي ذلك مزيد تقريع وتوبيخ لهم والإقلال والحط من شأنهم.

12. إسناد الفعل للمنافقين بصيغة المضارع: (يَقُولُونَ)، نحو قوله تعالى: (يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ)(آل عمران 154)؛ لاستمرارهم في محاولة خداع المؤمنين، وإسناده للرسول – صلى الله عليه وسلم– بصيغة المجهول، نحو قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا)(النساء 61)؛ لطعنهم في المتلو لا في التالي.

13. جاء الخطاب الحجاجيّ بصيغة الأمر قل, وبأنماط لغويّة تبرز فيها ضمائر الخطاب, واستعمل القرآن أساليب النفي والاستفهام كأدوات إقناعيّة, ولازم ذلك استعمال لأنماط متنوعة من التوكيد والتوكيد المركب, وباتساق مع أسلوب الخطاب, وهذه أدوات حجاجيّة هدفها الإقناع للمتلقي, ونقض قول خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا يظهر لنا أن الخطاب القرآنيّ يأتي على تراكيب متعددة، تتغاير من موقع لآخر، وتنطوي على رسائل يقصدها الحق سبحانه وتعالى، مناسبة لطبيعة المتلقي، والظروف المحيطة بمخاطبته.

التوصيات:

1. إجراء مزيد من الدراسات حول مواضيع القرآن الكريم المتنوعة، وبيان مواطن الحجاج فيها وأساليبه اللّغويّة المتبعة.
2. عقد ندوات ومؤتمرات حول مسألة الحجاج اللّغويّ في القرآن الكريم.
3. تضمين الحجاج في مساقات اللّغة العربية لطلبة الجامعات الأردنية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن عاشور، م، (1997)، تفسير التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، م3 ج7 ص64، م5 ج11 ص 117، م5 ج11 ص119، م5 ج11 ص120، م5 ج11 ص121، م5 ج11 ص122، م2 ج3 ص268، انظر م2 ج3 ص264، م2 ج3 ص269، م2 ج3 ص269، م2 ج3 ص269، م2 ج3 ص269، م5 ج10 ص247–248، م5 ج10 ص249.

ابن هشام، ع، (2009)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: دار الطلائع ج1 ص113–114، ج1 ص272، انظر ج1 ص38، انظر ج2 ص230، انظر ج1 ص183–184، انظر ج2 ص12.

أبو السعود، م، (ت951هـ)، (1970)، تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، م2 ج3 ص83، م2 ج3 ص84.

الألوسيّ، ش، (1978) روح المعاني، بيروت: دار الفكر، م3 ج7 ص37، م4 ج11 ص83، م4 ج11 ص85، م1 ج3 ص193، م1 ج3 ص193، م1 ج3 ص195.

الأمين، م، (2000) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، الكويت: مجلة عالم الفكر، المجلد 28 العدد 3، ص61.

بو صلاح، ف، (2015)، السلالم الحجاجيّة في القصص القرآني – مقاربة تداولية، أطروحة دكتوراه في اللسانيات، الجزائر: جامعة وهران1 أحمد بن بلة، انظر ص45، ص 142.

جمعية المحافظة على القرآن الكريم، لجنة التلاوة، (2015)، المنير في أحكام التجويد، ط29، الأردن: المركزية، انظر هامش ص120.

حسن،ع، (1966)، النحو الوافي، ط3، مصر: دار المعارف، ج4 ص469، ج4 ص406، ج4 ص140.

الدريديّ، س، (2008)، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة بنيته وأساليبه، ط1، الأردن–عمان: جدارا

للكتاب العالمي، وأربد: عالم الكتب الحديث، ص36.
الرازيّ، م، (1990)، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، م9 ج17 ص58، م9 ج17 ص59، م4 ج8 ص95، م4 ج8 ص95، م4 ج8 ص97.
الراضي، ر، (2014)، المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيّات اللسانية، ط1 المغرب الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ص75-76، 78، 98، ص95-96.
زادة، ع، (2010)، الحوار قيمة حضارية دراسة تأصيلية لمنهجية الحوار في الإسلام ط1، الأردن: دار النفائس، ص23.
الزمخشريّ، ج، (1980)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الكشاف، بيروت: دار المعرفة، انظر ج2 ص184، ج1 ص194.
زيادة، خ، (1986)، الحوار والمناظرة في القرآن الكريم، دار المنار 2ش الباب البحري بالأربكية، ص18.
سرحان، ه، (نوفمبر 2013)، الخطاب الحجاجيّ في شعر بشار بن برد مقاربة في تحولات الهوية الثقافية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها العدد 11، ص80، ص80-81.
الشهري، ع، (2004)، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط1، ليبيا: دار الكتاب الجديد المتحدة، ص257، ص324-325.
صمود، ح، (1998)،أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس: منشورات كلية الآداب بمنوبة ص299.
صولة، ع (2001)، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، تونس: جامعة منوبة، ج2 ص686، ج2 ص692، ج2 ص685، ج2 ص701-702.
عبد الحميد، م، (2015)، سبيل الهدى على شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق عبد الجليل العطا البكري، ط5، دمشق وبيروت: مكتبة دار الفجر، ص422.
عبد الرحمن، ط، (1998)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، انظر ص224.
عبد الرحمن، ط، (2000) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المغرب: المركز الثقافي العربي، ص38.
العزاويّ، أبو بكر، (2009) اللغة والحجاج، بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، انظر ص27، 104، 33.
العزاوي، أبو بكر، (2010)، الخطاب والحجاج، ط1، لبنان-بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، ص28.
العسكري، ح، (1952)، كتاب الصناعتين، تحقيق أحمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتاب العربية، انظر ص173.
العشراوي، ع، (2016)، آليّات الحجاج القرآني دراسة في نصوص الترغيب والترهيب، ط1، أربد: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ص161.
الفراء، ي، (1955)، معاني القرآن، بيروت: دار السرور، انظر ج1 ص220.
القاضي، م، (2010) إعراب القرآن الكريم، ط1، الصحوة للنشر والتوزيع، ص113.
قبيلات، ن، وبلسم العمري، (2015)، بلاغة الخطاب في رسالة ابن الدودين ردا على ابن غرسية دراسة في ضوء نظرية الحجاج، مجلة الكوفة، ع10 ص11، 12.
القضاة، ف، (2009)، الخطاب العقلي في القرآن الكريم، دراسة في علم تحليل الخطاب العقلي، ط1، دبي: دار العالم العربي للنشر والتوزيع، ص167، ص70.
لاشين، ع، (1977)، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط2، مصر: دار المعارف، ص165-166.
المبخوت، ش، (1998)، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس: منشورات كلية الآداب بمنوبة، ص 362.
ميارة، ل، (2006)، مفهوم الحجاج في القرآن الكريم، دراسة مصطلحية، سوريا-دمشق: مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 81، الجزء 3، ص552.
نزال، ف، (2003)، لغة الحوار في القرآن الكريم دراسة وظيفية أسلوبية، ط1 الأردن: الجوهرة للنشر والتوزيع، ص28-29، ص25.
النيسابوريّ، م، (1998)، المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، دار المعرفة، رقم الحديث 3926.
الولي، م، (2005)، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ط2، الرباط: دار الأمان، انظر ص371.

Mechanism of Influence and Persuasion in the Say Verses in the Holy Qur'an a Linguistic Study

*Omar Abdulhadi Hassan Alzyadat, Nizar Qbilat**

ABSTRACT

This study aims at identifying the mechanisms of influence and persuasion used in (verses of "say") in the Holy Quran. The study follows the linguistic analytical method to detect these mechanisms and to show their role in the rapid response of the recipient as well as his acceptance of this discourse. The study has also highlighted how rich The Quran is – in quantity and quality- in these linguistic aphorisms in accordance with the nature of the recipient and the circumstances surrounding the argumentative process and its purpose. According to the researcher, the recipients are divided into four types: believers, non-believers, people of the book, hypocrites. This division calls for a variety of linguistic methods that are obvious in the Qur'anic text.

Keywords: Persuasion, "Say" Verses.

* Faculty of Arts, The University of Jordan. Received on 16/4/2018 and Accepted for Publication on 5/7/2018.